القراءة التاريخية في الفكر الخلدوني : النص التاريخي وقياس التحولات

إسماعيل نوري الربيعي *

ما هي الآليات التي تميز مدخل المقدمة الموسوم (في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من الأغلاط والأوهام وذكر شيء من أسبابها؟)، هذا بحساب أن القراءة هنا تتطلع نحو استجلاء ملامح التشكيلة الخطابية التي يشتغل فيها الخطاب التاريخي الخلدوني، من حيث الشكل الذي تتبدى فيه، وإمكانية توافقها مع عنصر التطور الزماني وقدرتها على تكوين الصلة والعلاقة مع المجمل من الكلِمات التي يكون لها القدرة ِعلى الإفصاح والتعبير عن الفكرة التي تتم معالجتها.استنادا إلى وحدة العبارة التي تحيل إلى الموضوع الواحد ذاته وطريقة تجسيد العبارات التاريخية في إطار الوحدة الخطابية، القادرة على استيعاب طبيعة التحولات المستمرة ضمن فضاء الوعي التاريخي.انطلاقا من التطلع نحو مراعاة الشكل والتسلسل والترابط لمستوى الانِسجام القائم بين المصطلحات والفرضيات التي يقوم عليها النص.هذا مع أهمية التنبه إلى أن الوصف الذي يحوزه النص لابد أن يعيش لحظات التبدل والتغير انطلاقا من الوعي بالمتغيرات التي تطرأ على المقاييس التي يتم بها استقاء المعلومات(1)، وطريقة الوقوف عليها.وإذا كانت الموجهات في لحظة زمنية تفرض حضورها على ِالنص من خلال الحضورية الفائقة لبعض العبارات التي تحاول تحديد المفاهيم والسعي إلى فرضها ضمن المنظومة المتداولة - فإن القيمة التعبيرية للأفكار تبقى شديدة التعالق بين الصورة الجديدة ِالتي تتبدى عليه، وأصل الاشتقاق من المفهوم الأساسي الذي ارتكزت عليه.هذا بالإضافة إلى طبيعة الأشكال التي تتبدى عليها وحدة المضامين الفكرية تلك التي تكون بالعادة عرضة لتسرب الخيارات والميول والاتجاهات(2)، لا بحساب التشابه والثبات فقط، ولكنْ بقدر ما يكون أهمية الاختلاف حاضرا فيها والذي يكون بمثابة الحافز والموجه نحو بقاء النص وقدرته على الاستمرار من جهة أخرى.

التاريخ بوصفه عِلْمًا

يترصد موضوع التاريخ، الذي يعنونه ابن خلدون علما، فيما يؤكد عليه في المتن بوصفه فنا، في تكرار توكيدي (أن فن التاريخ فن عزيز المذهب) (ص41). ولعل الوقوف على التباين اللفظي بين مفردتي العلم والفن، يفصح عن طبيعة الموجه القرائي، وحالة التمثل التي يبرزها الخطاب خلال لحظة المعنى المتداول لمفردتي العلم والفن، حتى إن العرب كانت تصف العلم (الميكانيك) بفن الحيل على سبيل المثال. وابن خلدون في ترسيم موضوعه لا يتوانى من توصيف موضوعه بـ العزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية،

يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسيرهم. فيما يتم تحديد الغاية، من خلال ما تفصح عنه الذات حول إتمام فائدة الاقتداء لمن يرومه (أي التاريخ) في أحوال الدين والدنيا. وهكذا يتبدى محور الرغبة الذي يحدده مجال العلاقة القائمة بين الذات تلك التي تعبر عنها فائدة الاقتداء التي يشير إليها ابن خلدون، والموضوع الذي يتمثل بعلم أو فن التاريخ. ومن هذه العلاقة يمكن الوقوف على المدى الذي يبرز مجال حركة الخطاب، باعتبار الوقوف على مصدر وقصدية تلك الحركة. أو التمكن من تحديد مجال النفي والإثبات للموضوع. بل إنّ المهم في توزيع العلاقة القائمة هنا، إنما تنطوي على طبيعة العلاقة التي تترصدها الذات عبر الموضوع، ذلك الذي يمنحها الفاعلية وقوة الحضور والتأثير. فيما يحضر التوزيع لعناصر الموضوع والذي يقود إلى تشخيص معالم النفي أو الإثبات، أو تحديد مجال التحولات الإيجابية أو السلبية. وتبقى الذات بمثابة أداة التحريك للنموذج فيما يحوط الموضوع المزيد من الغموض باعتبار ارتباطه بالرغبة القصدية. حيث الملفوظ الذي يبقى مؤديا دور عملية الاتصال أو الانفصال وما يمكن أن يبرزه السرد من وضع سجالي في مجال توزيع العلاقات بين العناصر أو استبدالها ببعضها الآخر. ومن هذه الرغبة تتجلى معالم القصدية التي تحكم الأفعال الواعية التي تقوم عليها اتجاهات الموضوع والمتمثل بـ(علم التاريخ).

الذات المؤرخة

يرصد محور الإبلاغ مجال العلاقة بين المرسل (المؤرخ) والمرسل إليه (المؤرخين) وليس عامة القراء، فمصدر الخطاب يتوجه بلغة تعليمية قوامها النصح والإرشاد وإمعان مجال التفكر، وكأن منشئ الخطاب في حلقة درس يمليه على طلبة يسعون للتحقق من معنى التاريخ، بل أن طريقة التقديم تبدو وكأنها تسعى للإجابة على سؤال محدد. باعتبار البحث عن الباعث على الفعل والمستفيد منه، ومن هذا يصوغ الكاتب آليات خطابه عبر أكثر من محمول وصفة، فتارة تراه شيخا لحلقة الدرس، حين يمعن باستخدام فعل الأمر (اعلم، انظر، فما ظنك، كما ذكرنا لك، ولنذكر هنا) أو تتقمصه الذات الفاعلة المؤثرة في صلب الواقع، حين يذكر مباشرة (ولقد عذلت يوما بعض الأمراء من أبناء الملوك في كلفه بتعلم الغناءِ وولوعه بالأوتار، وقلت له: ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك؛ فقال لي: أفلا ترى إلى إبراهيم بن المهدي كيف كان إمامِ هذه الصِناعة ورئيس المغنين في زمانه؟ فقلت له: يا سبحانِ الله! وهلا تأسيت بأبيه أو بأخيه! أو ما رأيت كيف قعد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم؟! ففصَمَّ عن عذلي وأعرض. والله يهدي من يشاء.) (المقدمة ص 52)، وابن خلدون هنا مؤدب للأمراء، يسدي نصائحه لهم قادر على ترسيم موجهات العلاقة بين حدي النهاية والبداية. وهو القادر على تأطير مجمل التحولات في النص السردي. أو أنه يظهر بلباس المؤرخ حيث الاستغراق في التفاصيل لمجمل الأحداث التي يعالجها، حين يعمد إلى استخدام مفردات من نوع (وقد نجد،// ومن الأخبار الواهية//،هذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة،// وأما غزوهم بلاد الشرق وأرض الترك،//ومن تأمل أخبارهم،// من الأخبار الواهية،//حسبما نذكرهم،//وقد كدنا أن نخرج،//الذي نحن

شاهدُوهُ،//وأنا ذاكر في كتابي هذا) أو حين يعكف على تقديم صورة الواعظ ورجل الدين واللغوي، بحساب استخدام (فلا تثقن بما يلقى إليك من ذلك، وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه//، والله الهادي إلى الصواب//. نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال//، لكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا، وأرجو أن يجادلوا عني يوم القيامة//). وابن خلدون هنا يؤرخ من موقع المؤرخ المسلم الذي يعيش مرحلته التاريخية، وطريقة الإنشاء الخاصة بعصره والعلاقات السائدة فيه، ومن هنا فإن هذا التوجه إنما يعكس محاولة ربط الذات وجعلها كدافع للفعل والتأثير، باعتبار أن موضوع التاريخ هنا يقوم على غاية إبلاغية تستند على مدى الاكتناز بالقيم االتي يراد لها البقاء والاستمرار. وابن خلدون هنا لا يتردد في توسيع الفضاء الدلالي، حين يجعل من المؤرخ شخصاً مرتبطا بمحور الرغبة من أجل تحقيق إقناع المؤرخين والمتلقين والقراء، ومحاولة التِأثير عليهم من خلال توسيع مجال القبول، وتوكيد مجال الفِعل، هذا مع أهمية التنبه هنا إلى أن ما يرومه المرسل لا ينطوي بداهة على الخير الكامل أو الشر التام، حيث يبقى الاستثمار الدلالي في الفضاء السردي يقوم على مدركات الوعي بمدار السلبي والإيجابي الذي يختزنه النص. وطبيعة الِحراك والتحولات التي تشهدها العلاقات وإمكانية الهجرة والتسرب للقيم بين هذا الموقع أو ذاك. وعلى هذا فإن التدقيق والتبصر في دور المرسل (المؤرخ) في النص يبقى بمثابة الوسيلة التي يتم من خلالها قياس درجة التحولات.

رصد التحولات

أية تحولات يمكن رصدها في هذا النص الخلدوني؟ هل يكمن في فضل التاريخ؟ أم في تحقيق مذاهبه؟ أم في عرض الأغلاط والأوهام؟ أم في ذكر أسبابها؟ وهاهو ذا المؤرخ يقوم بتفعيل المزيد من الموضوعات والأفكار، ويسعى نحو إحياء المتعارضات والمتقاطعات، بل إنه لا يتردد من أداء العديد من الأدوار المختلفة التي تحمل بين طياتها المصالح المختلفة والأدوار المتنوعة، ليجعل النص بمثابة الحقل المفتوح على توسيع مجال الخيارات للأفكار من دون الوقوع في مجال التحديد، هذا على الرغم من حالة التوكيد التي يرسخها في نصه، والمتعلقة بالثابت الديني والأخلاقي.

ما هي نقاط الثبات والتحول التي يعمد ابن خلدون نحو معالجتها، في نصه الذي يتصدر المقدمة؟ إنه يتوجه إلى توسيع مجال التمايز في الوظائف، ويجعل من عنصر الزمان فاعلا مع استحضار بعض من الأثر الفردي الذي يحدثه بعض المؤرخين في النص التاريخي، فيما تكون القواعد المقترحة شديدة الانفتاح، من دون الانشغال بالوصف الزمني، إنه يعلي من شأن المِوضوع وجعله أداة للمعالجة عبر التباين الذي يتيح مجال الاستثمار الأصيل المؤدي إلى النتائج المتوخاة. وهكذا يكون الموضوع الخلدوني عرضة للتنوع والاختيارات الواسعة غير الخاضعة للتوظيب والتقنين(3). فقواعد الاشتغال لديه إنما تقوم على الحضورية الصارمة للمفاهيم والصياغات المعبرة اللافظة للضمانات والاحترازات، أو الوقوع في متاهات التبصر والتوقع، التاريخ الخلدوني وعي يقوم على

عمق التحليل وقوة الإدراك والانفتاح المتطلع نحو رصد التحولات. وهكذا تكون طريقته في رصد أحد عشر خبرا تاريخيا.

الخبر الأول والمتعلق بجيوش بني إسرائيل، (المقدمة ص41-43). يكون التوقف المدقق فيه عند:

1- المبالغة في عدد الجيش.

2- ضيق أرض الشام بمثل هذا العدد من الجيوش.

3- التتبع التاريخي لتطور عدد الجيوش المعاصرة لهم.

4- التحقق من النسب والنسل والأجيال.

الخبر الثاني يخص تبابعة ملوك اليمن وأخبار المؤرخين الضعيفة حولهم، (المقدمة ص 43-45). حيث الإشارة إلى:

1- السقوط في الوهم والغلط، والتي تبدو كأنها أشبه بالقصص الموضوعة.

2- الوقوف عند مسألة مؤونة العسكر.

3- البحث في التفاصيل الجغرافية والمكانية.

4- التدقيق في مجال النفوذ السياسي الذي بلغته دولة التبابعة.

ولا يتوقف ابن خلدون عند مجال النقد التاريخي للأخبار والروايات، بل إنه يسعى نحو رصد ما يتناقله المفسرون لبعض آيات القرآن الكريم،حول خبر (إرم) ذات العماد، وطريقة المعالجة اللغوية التي تقوم على إضافة الفصيلة على القبيلة، كقول العرب، قريش كنانة. وهكذا يتبدى ابن خلدون ناقدا اجتماعيا حين يتصدى لأخبار الرشيد، وناقدا ثقافيا لخبر المأمون، ونسابة حين يتعرض لموضوع خبر العبيدين والأدارسة. وقارئاً نابهاً لتحولات اللغة وتطور الدلالة الاجتماعية والسياقية لها، عبر رصده لوظيفة معلم الصبية تلك التي تم ربطها بوالد الحجاج بن يوسف.

توسيع مجال الرؤية

من أية رؤية ينطلق ابن خلدون حين يعمد إلَى التصريح المباشر بما يحتاج إليه صاحب هذا الفن (التاريخ)؟ المصرح به هنا، يقوم على تحديد شديد الوضوح قوامه:

1- قواعد السياسة.

2- طبائع الموجودات.

3- اختلاف الأمم والبقاع والأعصار والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب والأحوال.

4- التعليل والتحليل.

5- البحث في الأصول.

6- التفحص في الأسباب والأخبار.

7- مقارنة المنقول بالأصول.(4)

وتلك تكاد تكون قواعد منهجية يضعها أمام المتلقي، والدارس والقارئ وعابر السبيل، لكن ألا ينطوي هذا على إبراز مجال الصراع؟، حيث الدور الذي يحظى به المعيق (أوهام النقل) والمساعد (العرض على الأصول)، انطلاقا من البحث الذي يبرز الموضوع وطريقة ظهور العامل الذي يقوم عليه محور الصراع، وإذا كانت الذات المؤرخة لابن خِلدون تظهر في تمام تبصراتها المعرِفية - فإن الأمر لا يخلو من بروز بعض التقاطعات، إلى الحدِ الذي يمكن الإشارة فيه إلى إمكانية وقوع ابن خلدون ذاته في بعض من تلك الأوهام أو ربما المِجاملات، ولا سيما أن القراءة الممعنة والمدققة في سيرته الشخصية، كثيرا ما تشير إلى حزمة من التقاطعات بين المظهر والجوهر. أما مسألة العرض على الأصول فتبقى حبيسة ظرف الاشتغال، ولا تمثل مدارا قاطعا في مسألة تداول المعنى، بل إن المعيق ذاته والذي اختصه ابن خلدون بأكثر من إشارة، لا يخلو من آثار الذات المضادة، تلك التي تتبدى في رصده لأخبار المؤرخ المسعودي، والذي يورده في نصه خمس مراتٍ، يذكر في المرات الأربع المسعودِي ضمن طائفة المؤرخين الواقعين في الأغلاط وزلة القدم، لكنه في الخامسة يعمد إلى الاستدراك، حين يصفه بقوله: (فصار إماما للمؤرخين يرجعون إليه، وأصلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه)(ص 63).

كيف يتبدى ابن خلدون في نصه، أهو المؤرخ الرسمي الذي يعمل ضمن الفضاء الرسمي الذي تمثله الدولة، أم أن الموجهات المعرفية هي الأشد حضورا؟. هذا إذا ما أخذنا في الاعتبار طبيعة السيرة الشخصية لابن خلدون وتطلعاته وشغفه في تداولات السياسة ومغامراته التي لم تِعرف الهدوء أو السكينة، لكن تحرير مقدمته كانت في الفترة التي حاول الجنوح فيها إلى العلم والتأليف، حيث تمكن من استرضاء الأمير (أبو حمو) في تلمسان حتى تمكن من التفرغ للتأليف في أحد قصور بني عريف في قلعة بني سلامة من بلاد توجين، للفترة من 776 حتى 780 هجرية. كأنها لحظة استراحة المحارب المتأمل والحكيم، الذي راح يوظف الوحدات الجزئية من التاريخ ويصبها في الوحدة التاريخية الكبرى، والمتمثلة في فضل علم التاريخ. ولعل السؤال الأهم هنا يندرج حول توجهات ابن خلدون: هل كانت موجهة نحو فلسفة التاريخ؟ أم تاريخ التاريخ، أم منهجة التاريخ؟

الواقعة والتمثل

هاهو ذا يسعى نحو توسيع مجال الرؤية المتعلقة بموضوع التاريخ، حاشدا لها القرائن والبراهين والأدلة التي يستقيها من مؤلفات أعلام المؤرخين الذين يشير إليهم بالاسم، حتى ليستحضر أحد عشر مثلا تاريخيا مختلفا، يجعل منها بمثابة السند والدليل على الأوهام

والأخطاء والوهن والشرود والضعف، ومن هنا فإن مؤرخنا يحاول التأسيس لوضع القواعد والأسس التي يجب أن يتحلى بها المؤرخ، إنه التطلع نحو تركيز معالم الصنعة والحرفة والفن والعلم. من دون السقوط في المباشرة. هنا يتبدى باحثا متعمقا هدفه الأبرز يقوم على كشف العلاقات التاريخية، من خلال الاستناد إلى الدليل العقلي، وتوسيع مجال التحليل(5)، من دون الوقوع في النقل والخضوع لسطوة النص. إذ لا كبير أو صغير في المعرفة. وبهذا فإن المسعى يتلخص في: النزوع نحو المعرفي على حساب الاجتهادات الشخصية، والبحث عن الحقيقة بوصفها الغاية الأهم التي يقوم عليها معنى التاريخ، وليس التوجه نحو رصد أخطاء هذا المؤرخ أو ذاك، هذا على الرغم من تثبيته المباشر للكثير من الأخطاء التي وقع فيها الكثير من المؤرخين اللامعين، وبهذا فإنه يكاد يقول؛ بأنه لا كبير أمام الحقيقة. وهو المنشغل بالبحث في العقليات السائدة، وليس الولوج في التوصيفات التي تفرضها أنماط التفكير التي تتبدى هنا أو هناك. وعليه فإن الملمح الأبرز يقوم على توسيع مجال الاستكشاف التحليلي الذي يحاول النأي عن مجال التكهنات والتوقعات حيث الأهمية القصوى التي تحتلها التجربة وفي ممارسة واضحة تقوم على:

1- تعيين التمثلات والعمل على تفكيك أنساقها من خلال رصد مصدر التلقي والأثر الذي تحدثه في الواقع، تلك التمثلات التي لا تتوقف عند توصيف منهجية تاريخية، أو درس موجه لطلبة علم، بقدر ما يتبدى معه أثر العلاقات الاجتماعية وتفسيراتها السائدة على موجهات الإدراك.

2- طرح مجمل الروايات التاريخية في المدونات الكبرى، للنقد والتحليل، وتفكيك علاقاتها الزمانية والمكانية، وإمكان الكشف عن رؤى جديدة.

3- توجيه النظر إلى التاريخ بوصفه موضوعا قابلا للاتصال والانفصال، وحث الجهود على نفي الثبات والمطلق الذي يكاد يتبدى لبعضٍ من المتلقين.

4- الوعي بأهمية الجانب الخَطِّيِّ من التاريخ، والحرص على تنظيم العلاقة مع حد البداية والنهاية، لا- سيما وهو المؤرخ المسلم، المؤمن بيوم القيامة والبعث والحساب. ولسان حاله يقول: (جادلت عنهم في الحياة الدنيا، وأرجو أن يجادلوا عني يوم القيامة) (المقدمة ص 57).

5- توظيف المعارف وإدراك مجال التعاون بينها، فالمعاني متداولة وقابلية الإفادة منها مبثوثة على مختلف الحقول، وإذا كان المسعودي المؤرخ قد وضع مصنفه لشرح أحوال الأمم، فقد جاء البكري من بعده وهو البلداني، مستفيدا من المنهج الذي اختطه سلفه المسعودي.

قواعد الرؤية الخلدونية

يبرز الموجه الأصل لدى ابن خلدون في توجهه نحو تحديد قواعد الممارسة، والتي يمكن أن توجه أفق المؤرخ نحو الأصيل والجوهري، من دون الوقوع في متاهة البحث

عن الحقيقة الضائعة أو المبطنة، فالاشتغالِ هنا لا يقوم على التطلع نحو توسيع مجال المجاز والتأويل، بقدر ما يستند التاريخ إلى القواعد المنهجية الواضحة والصارمة، الساعية نحو رصد التحولات القائمة في تعاقب الأجيال على الصعيد الاجتماعي. إذ يكون دائما ثمة تراكمات لا بد للمؤرخ الوعي بها والتفطن لها، بحساب التفحصِ والتمعن في دراسة الأحوال والأوضاع والعادات، التي لا تبقى لا حال من دون تغيير أو تبدل، بل إن الأهم هنا أن يقوم على ضرورة التمييز في أحوال التجانس والتقاطع الذي يمكن أن يتبدى على مجمل الأحوال السائدة(6), وجعلها سبيلا نحو القراءة الفاعلة المتطلعة للخلاص من مزالق الخطل والخطأ الجسيم.

ِتتبدى سطوة السياسي على الموجه الرؤيوي لابن خلدون، حتى إنه لا يتوانى من الاستناد إلى الحكمة الشائعة (الناس على دين ملوكهم)، وتنبثق تلك الرؤية من خلال هيمنة وقوة التوجيه التي تحوزها السلطة السياسية، ليكون التطلع نحو النهل من العادات والتقاليد السائدة خلال الحكم السالف، ومن واقع تعاقب الأجيال السياسية اللاحقة، يتم التوسع في مجال الاختلاف، والذي يتمظهر في تباين يكاد يكون شاملا وتاما. ومن هذا فإن فقدان الخصوصية للعادات الشائعة، تبقى دائرة في فلك المظاهر الخارجية، تلك التي تكون إمكانية رصدها قائمة، أما بالنسبة للإحاطة الممكنة بالفوارق والاختلاف بين جيل وآخر، فإنما يبقى مستنده يقوم على في توجيه الإمكانات المتاحة(7) حول التحليل للفوارق التي يتم رصدها.

في المحاولة نحو وضع القواعد التنظيمية التي تحكم عمل المؤرخ، يكون التوجه نحو المؤثرات الحاكمة التي تقع على الفرد أو الجماعة، في طريقة المحاكاة لما هو سائد وشائع، حيث وقوع المؤرخ في فعالية التفسير بالسائد، تلك التي تعمد نحو استحضار القياس مع الأعراف السائدة، حتى يتم الخضوع للشاهد التاريخي من دون التدبر لأهمية الفوارق بين الأوضاع والتجارب، لتكون النتيجة وقد تمثلت في توسيع مجال الانحراف عن الوصف المنظم الساعي نحو تحديد خصوصية العصر ِالتاريخي. وابن خلدون يؤكد هنا (على أن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة في عصر أو جيل). ما هو الإطار الذي يعمل به مؤرخنا، ابن الدولة العربية الإسلامية التي تمثلها الخلافة؟. وما هي المنطلقات التي حددت عليه مسار الرؤية، والمدى الذي يحاول الخوض فيه؟، أهو التبرير باعتبار ثقل تبدل الأحول الذي جثم على الواقع، من خلال لحظة سقوط دولة الخلافة عام 656 هجرية، أم هو التوجه نحو تحليل الأحداث؟ هل هي التناقضات والوضع المعقد والمرتبك الذي وجد ابن خلدون نفسه فيه، أم هي اللحظة الفارقة التي قيض له أن يستثمرها باعتبار الإمساك بالتراث الغني الذي خلفته تلك التجربة؟، حتى تبدى لنا بمثابة الشاهد الأخير. ولعل الاهتمام الملحوظ الذي يبديه ابن خلدون بموضوع الخلافة - يبرز المزيد من حالة الارتباط العميق بين هذا المؤرخ الذي تلبسته روح الباحث المحلل في الأوضاع والمآل ومحاولة حساب النتائج، تلك التي يرصدها عبد الله العروي عبر المفاهيم الأربعة: الطبيعة، الاجتماع، العصبية، الملك(8).

ومن هنا يبرز موجه التحليل المستند إلى محاولة قراءة السكونية التي حطت بثقلها على الواقع السياسي العربي الإسلامي، حتى لم يعد من المجدي أو المنطقي أن تكون الوجهة نحو التبرير، بقدر ما تبرز أهمية التحليل للعلاقات السائدة، من خلال التطلع للوقوف على مستويات الترابط بين القوانين التي تفرضها الطبيعة. حيث المحاولة للكشف عن طريقة توزيع القدرات التي يحوزها المجتمع، ومدى الارتباط القائم المستند إلى رابطة العصبية التي يقوم عليها الملك. في محاولة منه للبحث عن أس العلاقة القائمة بين السياسي والاجتماعي(9). ومن واقع التجربة السياسية الخاصة التي خاضها ابن خلدون، يمكن تلمس سعيه نحو البحث في مدى العلاقة القائمة بين الطبيعة والعمران البشري، هذا الأخير الذي تتماثل فيه مقومات التجربة التاريخية العربية الإسلامية.

من أي زاوية يمكن النظر إلى آلية الاشتغال الخلدوني، هل يبدأ من النقد بوصفه غاية مطلقة، أم أن إعادة البناء؟ لتسهم في إعادة ترميم المحتوى؟، وهل يقوم فعل الترميم هنا على محاولة للتعديل المباشر لأفكار بعينها، أم أن التطلع يكون مستندا إلى توسيع سلطة التاريخ المعرفية؟، هذا بحساب الاستناد إلى مرجعية معرفية واضحة المعالم محددة الأبعاد.إن التمعن والتفحص في الشروط واللوازم التي يزخر بها النص الخلدوني، سرعان ما تكون بمثابة الإفصاح عن مكنون العلاقة القائمة بين الوعي والواقع، حيث الانفتاح على توسيع أفق البحث عن شروط التغيير بناء على المرتكزات المعرفية التي تتوجه نحو تركيز مجال الوعي، لحظة سقوط الدولة العربية الإسلامية، وما رافقه من تراجع لبنية الاشتغال والاهتمام بالتفكير العلمي، والذي راح يعيش لحظة التوصيف والمكنّاة بالفترة المظلمة. ولكن التساؤل يبقى منفتحا على هذه الفترة تحديدا والتي لم يغب عنها إبراز المزيد من الأسماء الفكرية، والتي مثلت كذلك حركة فكرية على حد توصيف أدونيس، ممثلة في جهود ابن منظور ت 1377هـ في علوم اللغة، وابن بطوطة ت 1377هـ في البلدانيات وعلوم الجغرافية, و ابن خلدون ت 1406هـ في علم العمران(10). تلك الحركة التي راحت تغذ السير نحو تجاوز حالة الوهن والتداخل التي غطت بثقلها على الواقع السياسي، في محاول للإفلات من عبء تراجع الزمان أو ما يدعوه ابن خلدون بتقلب الأحوال، حتى ليبرز فعل التأسيس في محاولة ترسيخ معالم التجاور بين المجتمع والتاريخ، بين الواقع والوعي، هذا مع أهمية التنبه إلى قيمة المثال التاريخي النازع نحو توسيع مجال التفسير وتشذيب معالم الارتباط بالماضي، والخلاص من النظرة الأحادية التي يتم إلحاقها به. ومن هذا فإن المعالجة الخلدونية بقيت تركز على المنظور التاريخي، من خلال البحث العميق في ثنائية الطبيعي والمكتسب الذي يغلف ميول وتطلعات الأفراد والجماعات، حتى كان من الطبيعي أن يجعل من الأوج الحضاري مرجعا أساسيا في التحليل والتفسير، من دون الوقوع في دوامة الحنين إلى الماضي، بقدر ما تتبدى المحاولة في جعل الإدراك وسيلة وأداة موجهة نحو توليد المعنى. والسعي العميق نحو تخليص التاريخ من اللاوعي، عبر منظومة الرد إلى الأصول والعرض على القواعد (المقدمة ص 41). ومن هذا فإن نزع القداسة عن التاريخ من خلال السعي نحو تفكيك المبهمات

والمداخلات وجعل التاريخ مساحة قابلة لتنشيط دور الفعل والنظر، من ثم إفساح المجال للتجاوز والتخطي ومحاولة التحرر من المكبوت الجاثم على العقل، وتقديم مجال النقد الصارم للمجمل من الأحداث والوقائع، ومن هنا فإن التحليل يكون بمثابة المرشد نحو الكشف عن التناقضات والعوائق المستحكمة لمجمل تراث النكوص والهزيمة الذي حل بالأمة.

يبرز مجال توظيف الخبرة المعرفية لدى ابن خلدون، من خلال وضوح الرؤية المعرفية لديه، والتي تبقى مرتكزة حول فكرة التأثر، تلك التي تفرضها طبيعة العلاقة القائمة بين الغالب والمغلوب، هذا التأثر الذي يكون بمثابة الحافز نحو توكيد دور العقل في توظيب معالم العلاقة داخل الثقافة الواحدة(11) بل إن الانفتاح المأمول من مجال التأثر لا يعدم أن يكون وسيلة للكشف عن المخبوء والمكتوم من المآسي التي يتم ارتكابها بحق البشرية(12) من قبل القوى المهيمنة والغالبة، ومن هذا فإن تشكيل العلاقة التي يحول ابن خلدون تبويبها لا تقوم على صراعية طبيعية، بقدر ما تحاول الخوض في تحديد المؤثر الثقافي الذي يكون أثره أشد فتكا وقوة من الحروب والمعارك. أما فكرة التحول والتي تتمركز حول تبدل أحوال الأمم والأجيال فإنه يرصد الأهم فيه والذي يبقى قائما حول التمييز بين السياسي والمعرفي، حيث كانت نتاجا لفترة الحياد التي اختارها مؤرخنا في سبيل ترسيم معالم العلاقة بين تفسير الظواهر سعيا إلى الفهم، ومحاولة الوعي بما آلت إليه أحوال الأمة، من تفكك وعجز وتنابذ وصراع على الصعيد السياسي، وانفتاح على المعرفي وحضورية الرأي، ولا سيما أن المؤثرات الحاضرة تبقى فارضة حضورها على تفعيل هذا الحيز(13). أما فكرة النقدية فإن طريقة البحث والتحليل التي انغمس فيها ابن خلدون كانت قد أبرزت حيز الاشتغال في التنقيح والتعديل والتحقيق، وعلى هذا راح ينعى مبدأ التقليد، الذي كان له الأثر البالغ على كم النتاج التاريخي، ومن هذا فإن الاستثمار الواعي الذي تحقق لابن خلدون إنما جاء من واقع الإفادة التي وضعها علماء البلدانيات والسياسة والخراج والاقتصاد وتاريخ الأمم والتاريخ الثقافي والفكري والمذهبي(14).

جاء الاشتغال التاريخي، ضافيا محددا بوصفةٍ منهجيةٍ حتى ليمكن وصفها بالمصفوفة الخلدونية، تلك التي تحرص على:

1- رصد عمل المؤرخين و تمييز حقل الاشتغال المهني بدقة عالية، حتى لكأنه يحاول وضع شروط وظيفة المؤرخ.

2- ترسيخ معالم العقل الواعي عبر التركيز على النقد التاريخي، والولوج في المقارنات ورصد المفارقات والوهن ومواطن القوة.

3- الاستفادة النابهة من العلاقة بين الأجيال، من خلال التركيز على دراسة علاقة النسب والتحقق منها، وتوظيفها كعلاقة تحقيق واشتغال, و ليس أداة للتبعية وترسيخ الأوهام(15).

4- الحرص على الخبر التاريخي، ومن هذا تكون العناية بالبحث عن الطريقة التداولية له، وهو لا يكتفي بوضع الخبر وصَفِّه في منظومة خبرية، بقدر ما يكون السعي نحو ترميم العلاقة القائمة بين الأخبار بروح الباحث النابه والمدقق العاقل النائي بنفسه عن المؤثرات والتحزبات والانتماءات الفرعية، وبهذا فإن التطلع يبقى مفصحا عن محاولة نابهة نحو إخراج الخبر من سطوة وهيمنة السياسي، ودمجه في السياق الاجتماعي.

****

الحواشي

*)كاتب وباحث من العراق.

1- محمد الحداد، حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي، دار الطليعة، بيروت 2002م.

2- سعيد بنكراد، مدخل إلَى السيميائيات السردية، تانسيفت، مراكش 1994م.

3- ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت 2005م.

4- اعتمدنا على طبعة المقدمة، باعتناء ودراسة أحمد الزعبي، دار الأرقم، بيروت لا تاريخ، ص ص41-64.

5- علي الوردي، منطق ابن خلدون، دار كوفان، بيروت 1994م.ص 63.

6- علي أومليل، الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون، معهد الإنماء العربي، بيروت، بلا تاريخ، ص 168.

7- بنسالم حميش، الخلدونية ومرآة فلسفة التاريخ، مجلة الاجتهاد، العدد 22، ص 114.

8- عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت 1997م، ص 66.

9- عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت 1997م، ص28.

10- أدونيس، الثابت والمتحول، دار الساقي، لندن 2002م، ج4، 48.

11- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، بيروت 2000م، ص 552.

12- محمد لطفي اليوسفي، فتنة المتخيل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 2002م، ج 1، ص 189.

13- حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، بيروت 2002م، مجلد 2 ص 385.

14- وجيه كـوثراني، التاريـخ ومـدارسه في الغرب وعنـد العرب، الأـحوال والأزمنة للطباعة والنشر، بيروت 2001م، ص 104.

15- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص 241.